مكتبتي ٢٨

شبّيك لبّيك

وقصص أخرى

بقلم : عبد التواب يوسف
رسوم : أحمد عبد النعيم

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ Email: maaref@idsc.net.eg

إعداد ماكيت : أماني والي

- ١ -

كنتُ أديرُ فِى رأسِى فكرةَ ذَلكَ الجنِّى أو العملاقِ أو المارِدِ.. سليمانُ يداعِبُ خَاتمهُ، وعلاءُ الدينِ يدعكُ مصباحَه، ويخرجُ ذلك الذِى يقول..

- شُبِّيكْ لُبِّيكْ عبدَك بينَ يديْك !

وَننبَهِرُ ، مَا أكثر ما نريدُ أنْ نطلبَ منه ..

إننى أكرهُ العبوديَّةَ حتى ولَوْ كانتْ مع هذَا الجنى، الذى يصارحُنِى بأنه (عبدى) و(ملك يدى) وأريدُ أنْ ألفتَ نظرَه إلى أننِى أحبُّ الحريةَ، بل أقدسهَا، وأرفضُ أنْ أستعبدَ أحدًا كائنًا منْ يكونُ، فأقول للجنى ..

- مَا الذِى يجعلُكَ عبدًا لِى ؟

- إنكَ تملكُ الخاتَمَ (أو المصباحَ أو القمقمَ).

- هل إذَا تملكْتَ هذَا الشىءَ أوْ ذَاكَ: أملكَ ؟

- نعَم يا سيدى ..

- لا تقلْ كلمةَ سَيِّدِى مرةً أخرى ولا تنادِى بهَا.

- لماذَا يا سيدِى ؟

- لا أحبُّ أنْ أكونَ سيدًا لأحدٍ..

- يقولُونَ فى بعضِ بلدانِكُم (سيد الدكَّانِ) أىْ صاحِبه.

- عِبارةٌ غيرُ موفقةٍ.. (يا سيِّدِى) ! تكلَّمْ معِى ببَساطةٍ.. يضيقُ صدرِى بك..

- ماذا جنيتُ يا..

- وأقاطعُه بحدَّةٍ وعُنفٍ..

- اسمعْ أيها الجنىُّ، اذهبْ فأنتَ حرٌّ..

- ماذَا ؟!

- أنت حرٌّ، لوجهِ الله.

- كيف؟ هذَا يخالفُ طبيعةَ الأمُورِ.

- ألستَ سعيدًا بِحُريتك؟

- مَاذا أفعَلُ بهَا؟!

- هذا سؤالٌ جميلٌ.. تعَال لنجلسْ ونحاولْ أنْ نجيبَ عنه..

- شكرًا، ولكن..

- هل تحبُّ أنْ تأكلَ أو تشربَ شيئاً.. اخترْ ما شئتَ.

- لا أدرِى.

- كيف هذَا؟

- أنا منذُ وجدتُ لمْ أجرِّبْ (الاختيارَ)..

- لأنَّ الاختيارَ والانتخابَ مِنْ ثمارِ الحريةِ.

- وأنا لمْ أذقْهَا..

- ٢ -

اتخذتُ لنفسى مقعدًا، ودعوتُ الجنىَّ لكى يَخْتارَ لنفسِه أنْ يجلسَ أوْ يظل واقفا، وأنْ يَنْتَقِىَ لنفسِهِ المكانَ والمقعدَ الذى يجلسُ عليه..

احتار ماذا يختار..

ترددَ طويلاً ، وارتبكَ.. وظلَّ واقفاً..

- إننى أكونُ سىء الأدبِ إذَا جَالستُكَ ياسيدِى.

- إذِا نطقتَ بِهذِهِ الكلمةِ (سيدى) مرةً أخْرى عاقبتك أشدَّ العقابِ..

- وبماذَا أناديك ..

- باسمِى .. ألمْ تسمعْ هذه العبارةَ المدوِّيةَ:

- «ارفع رأسَكَ يا أخِى فقد مضَى عهدُ الاستبدَادِ».

- هل مضى فعْلاً؟.. ألا ترى الذينَ يدخلُ الواحدُ منهم على الملكِ أو الحاكمِ خَافضَ الرأسِ، بل منحنيا، إلى أنْ يصل إليهِ عندَ عرشِهِ، فيقبل الأرضَ بينَ يديْهِ، ويقبل يدَيه، ويظل هكذَا طيلة المقابلةِ.. إنْ لم يكنْ قدْ حدثَ معَكَ، ربما تكونُ قدْ شَاهدْتَه على الشاشةِ الصغيرَةِ..

- أعرفُ أنَّ بعضَ هذهِ المناظرِ المؤذيةِ ما زال موجودًا، لكنهَا إلى زوالٍ بفضْلِ موجةِ الإيمانِ بالحريَّةِ وحقوقِ الإنسانِ التى تجتاحُ عالمنَا..

- مَاذَا فعلَ إخوتُك الأفارقةُ بحرِّيتهِم؟

- استمتعُوا بهَا..

- بعضهُم حرًّا فِى أنْ يقتلَ مواطنِينَ.. بل وصل الأمرُ بأحدهِم أنْ أكل لحمَ البشرِ، وهو أمرٌ أعرفُ أنكم ترْفضُوهُ فى الحكاياتِ فمَا بالكم بهِ فى الحيَاةِ؟

- رغمَ هذه البشَاعةِ إلا أنَّنى أعرفُ أنَّ هؤلاءِ أساءُوا إلى الحريَّةِ..

- هم قتلوهَا، حينَ جعلُوا مُوَاطِنيهِمْ أحرَارًا فى أنْ يموتُوا جوعًا!

- هل أنتَ معهَا أو ضِدَّهَا؟

- أريدُ أنْ أفهمَهَا أولا وقبْلَ كلِّ شىءٍ..

- الحريةُ هِىَ الحريةُ.. لقدْ قلتُ لك: اذهبْ فأنتَ حرٌّ، وإذَا بك تقِفُ لتناقشَنِى بدَلاً مِنْ أنْ تمضِىَ فرحًا مبتهِجًا تمارسُ حريتَك..

- هَلْ أمارِسُ بِضَخَامَتِى هذِه حرَّيتِى فى التحْطيمِ والتدْميرِ؟ هل أمارسُهَا باستعبَادِ الآخرِينَ بعْدَ أنْ استعبدتْ آلافَ السنِين؟

- هَلْ ترفضُهَا؟

- سيدى، معذرةً.. إننى لمْ أحْظَ طيلةَ حياتِى بالتفكيرِ وحرية التفكيرِ.. أنا عبدٌ.. أنا أداةٌ هل تسمحُ لى بالجلوسِ، لكىْ أفكرَ فِى الأمْرِ؟

- تفضلْ..

- ٣ -

جلَسَ الجِنىُّ واضعًا رأسَه على كفِّه، وعقدَ جَبِينَهِ، وظل صامتًا بعضَ الوقتِ قبل أنْ يهبَّ واقفا..

- تعودتُ على تلَقى الأوامرَ وتنفيذهَا.. ولستُ قادرًا على أنْ أفكرَ.. قلتُ له:

- إذَنْ، آمرك بأنْ تفكرَ..

- أفكر؟ ما أصعبَ هذَا.. اطلبْ قصرًا أقومُ ببنائِه.. اطلبْ خزائنَ مال آتيك بهَا.. اطلبْ عرشَ بلقيسَ أنقله إليْك.. أمَّا أنْ أفكرَ فذَلِك أمرٌ يخرجُ عنْ نطاقِ قدرَاتِى..

- هل التفكيرُ صعبٌ إلى هذَا الحدِّ؟

- بل هو مستَحِيل على أمثالِى من الأرقَّاءِ والعبيدِ.

- أنتَ تؤدِّى الخوارقَ.

- هو يتجاوزهَا.. التفكيرُ أكبرُ منهَا وأعظمُ.

- لكنَّ صغَارًا فى عصرِنَا يفكِّرُونَ.. ويبدِعُونَ..

- هذَا أمرٌ فوقَ طَاقتِى.. العبيدُ لا يفكرونَ.

- أنا حررتُكَ..

- كيف ومهمتِى أنْ أكونَ عبدَكَ بينَ يديْكَ؟

- ألمْ (تفكرْ) يوماً فى (الهرَبِ)؟

- الهربُ؟ منْ أينَ؟ وإلى أينَ؟! ومما أهربُ؟

- منْ هذَا السجنِ الذى تقيمُ فيه.. هل أنتَ راضٍ عنه؟

- لا أدرِى..

- لماذا لا تعيش لحسابِك؟ لنفسِك؟.. أنتَ قادرٌ على أشياءَ كثيرة: تبْنى قصراً فى لحظة، وتأتِى بأموالٍ لا تعدُّ ولا تحصَى، وتتنقل بينَ أرجاءِ الدنيا فى لحظاتٍ، لماذَا لا تستفيدُ بكل هذَا؟

- هذَا أحققُه لِمَنْ يمتلكُ الخاتمَ أو المصباحَ أو..

- مَاذَا لوْ أمرتُكَ بذلكَ؟ ماذا ستصنعُ؟

- لا أدْرِى ، ربمَا أجبتُكَ بأنَّ هذا فوقَ طاقتِى!

- المفروضُ أنْ تنفذَ كلَّ ما أطلبُ.

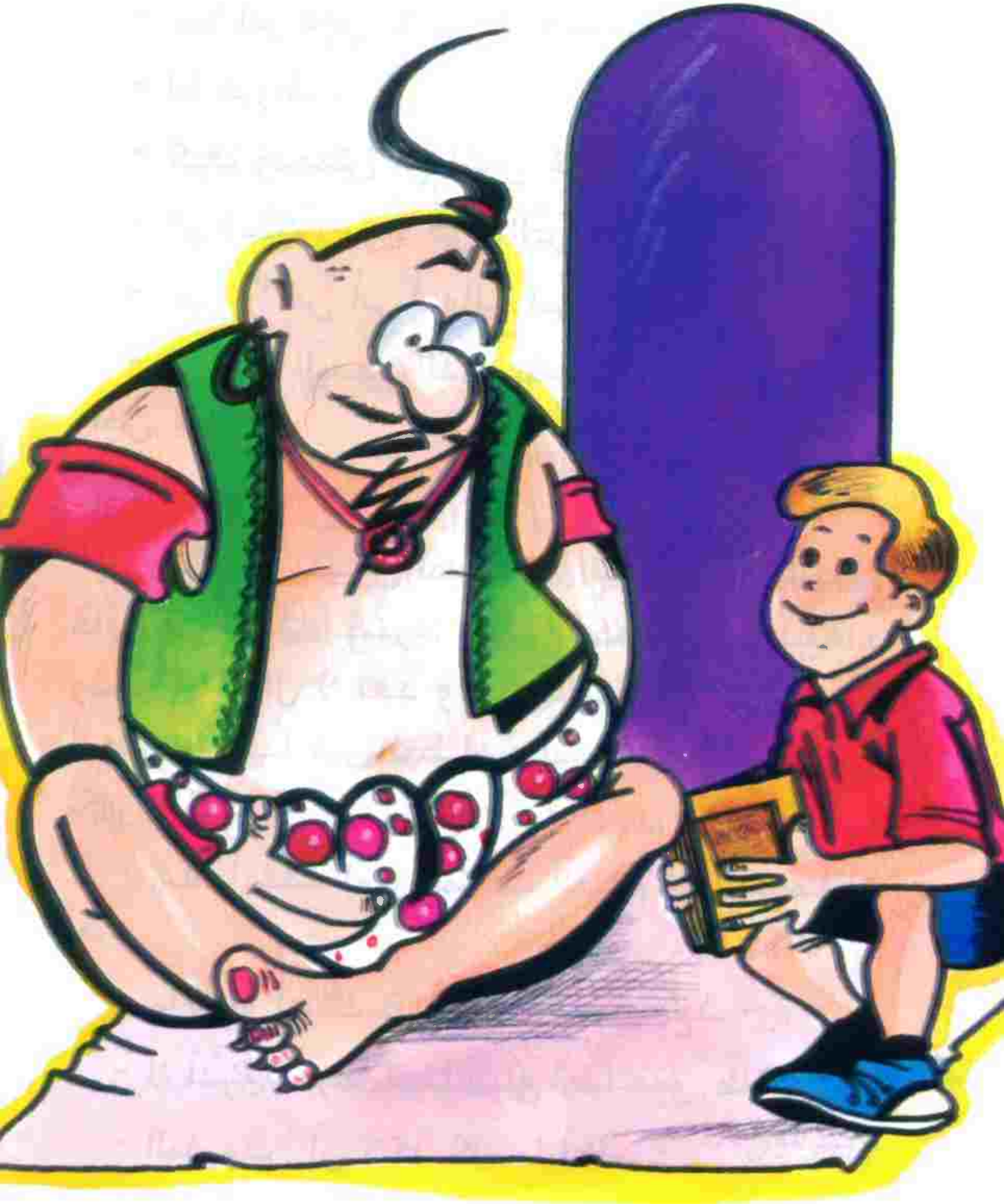

- لا أظنُّ ذلك ممكناً.. لا أقدرُ على هذا..

- أنتَ أول منِ يرفضُ (الحريَّةَ).

- لأنهَا مسئوليةٌ لا أقدِرُ على تحملِهَا.

- أنتَ مذهِلٌ..

- أنا تعبْتُ يا سيدى.. رأسِى تكادُ تنفجِرُ مِنْ هذَا الحِوارِ الذى دَارَ بيننَا، هل لديْك «قرصٌ» لعلاجِ الصدَاعِ؟

- لدىّ.. لماذا لا تأتِى بِه لنفسِك؟

- لا أقدر ولا أستطِيعُ.

قمتُ، آتِى لهُ بالدواءِ، وألقىَ بنفسه على مقعَدٍ وثيرٍ، واعتمدَ رأسَه بينَ يديْهِ، ولاحَتْ منِّى نظرةٌ إليْه فوجدتُه يبْكِى فى صمْتٍ، وراحَتْ دموعُه تتساقط مِنْ عيْنيْهِ.

— ٤ —

- عدتْ إليْه بالدواءِ، وأنا أتساءلُ..

- كمْ «قرصاً» يمكنُ أنْ تشْفى هذَا (الرأسَ) الكبيرَ؟!

وابتسمتُ، فمَا رأيتُ فى حياتى رأسًا أضخمَ منْ رأسه الذى لا يستخْدمُه قط فى التفكيرِ، لذلك رأيته رأسًا صغيرًا.. وكنتَ طوال الوقتِ أفكرُ فى الاستعَانَةِ بأطفالِ العائلة، ربمَا يكونونَ قادرِينَ على أنْ يجدُوا حلا لمشكلته، وبعدَ أنْ تناول «الأقراص» قال لى..

- هل لك أن تأمرَنِى بالانصرافِ يا سيدى؟

- ألا تستطيعُ ذلك مِنْ تلقاءِ نفسِك؟

- لا.. تعلمُ أنِّى لا أقدرُ إلاَّ على تنفيذِ أوامرِك!

- لقد قررتُ أنْ أشركَ معِى أصدقائِى الأطفالِ، لكى يفكرُوا فى مساعدَتِك..

- قدْ يخافونَ منْ منظرِى!

- أطفال هذَا العصرُ أشجعُ مما تظنُّ.. ابقِ مكانَك إلى أنْ آتى بِهِمْ..

- قَالَ مستَسْلِما: الأمرُ لكَ يا سيدى..

غادرْتُ المكانَ إلى حيثُ كانَ الأطفالُ يلعبُونَ.. جمعْتُهم حولى، وعرضتُ عليهِم الأمرَ، هتفُوا..

- نُريدُ أنْ نرى هذَا الكائنَ..

- كيفَ يعيشُ على (السمعِ والطاعةِ) فحسْبُ؟

- خذْنا إليْه، أو اجعلْهُ يأتِى إلينَا..

سألتهُم بهدُوءٍ:

- ألنْ تفزعُوا منْهُ؟

ودَوّت ضحكاتٌ ، فى جنباتِ الغرفةِ، وقالتْ منَى:

- المهـــمُّ ألا يخـــافُ هـو.. طمئنُـه بقـدرِ ما تستطيعُ.

قلتُ لهم:

- هيَّا بنا إليْهِ..

دخلْنا عليهِ، وإذَا به ينكمِشُ فِى مقعدِه قلقًا وخوْفا..

أما هُم فقدْ راحُوا ينظرونَ إليْه، ويحدِّقُونَ فيه، ويدُورونَ حوله، بلا دهْشَةٍ.. لقدْ رأوا دُمًى كثيرةً فى حجْمِه وأضخمَ منه، كما أنهم قرءُوا (جاليفر) وعرفوا كيف انتصرَ على العمَالِقةِ، لقد كانُوا يعطِفونَ عليه أكثرَ مِمَّا يخافونَ منه.. قالت له منَى:

- مرَحباً .. أهْلاً .. وسهْلاً..

- شكرًا..

- هل لك أن تجِيبَ على بعضِ أسئِلتِنَا؟

أسئِلة؟!

- نعَمْ..

- لا أظننى قادرًا على ذلِكَ.. أنا لم أتلق تعلْيماً كافياً ولم أدخل مدرسة ولم أقرأ كتاباً..

صاحَ الأطفالُ فى ذهُولٍ:

- ماذَا!

وسألتْ منَى:

- وماذَا عن «الكمبيوتَر» و«الإنترنِتْ»؟

- أىُّ شىءٍ هذَا؟

ضحِك الأطفالُ، وفكَّروا فى أنْ يغَادِروه ويتركوا الغرفة..

— ٥ —

الماردُ يعرفُ حكايةً قديمةً.. حكايةَ الجنى الذى قال لنفسِه بعدَ أنْ ظل حبيساً لفترةٍ امتدَّتْ ألفَ سنَةٍ.

- سوفَ أشكرُ مَنْ يطلُقُ سراحِى..

وعندما لم يفعلْ أحدٌ ذلك، قال الجنى لنفسِه بعدَ ألفِ سنةٍ أخْرى.

- إننِى سأكافِىءُ من يخرجنِى من سجْنِى..

وعندما فقدَ الأملَ فى الحصُولِ على حريتِهِ قال بعْدَ ألفِ سنةٍ ثالثةٍ:

- إذَا ما أخرجَنِى أحدٌ من القمْقُمِ سأتخلصُ منه!

وهو يعرف أنَّ الذى خلَّصَه، قال له عندمَا هددَهُ بالقتلِ..

- أرنِى كيفَ كنتَ بداخلِ هذَا الإناءِ الصغيرِ..

وعندما دخلَ أغلقَ عليه، وألقَى بِهِ فى الماءِ، فقال لنفسِه:

- لِماذَا لا أجربُ ما حدثَ دونَ أنْ أعودَ إلى القمقم!..

هذه لعبةٌ قديمةٌ لنْ أسمحَ بتكرارِها..

فهمْت - أنا الإنسانُ الذى عثرتَ عليه - ما يدورُ فى رأسِه وسخِرْت منه، راويًا الحِكايةَ، فصرخ قائلًا:

- اخترْ لنفسِك الطريقةَ التى تودِّع بها الحياةَ..

قلتُ:

- لا أملكُ ذلك، حياتِى ملكٌ لخالقِهَا، يستردُّهَا فى الوقتِ الذى يشاءُ ويريدُ..

صاح:

- (سأكونُ أنا الذِى أخلصُكَ منهَا، وستكونُ نهايتُك على يدى)..

- تقتلنِى وأنا الذِى أطلقْتُكَ مِنْ سجنِكَ وأريدُ أنْ أمْنَحَك حريتَك بالكاملِ؟

- أنتَ المسئولُ لأنَّكَ منحتَنِى الحريةَ فِى أنْ أقْضِىَ عليْك.

- عَيْبٌ عليْكَ هَذَا.. المفروضُ أنْ تنفذَ أوامِرى وتقضِىَ حاجَاتِى، لا أنْ تقضِىَ علَىَّ.

- ألنْ تختارَ الوسيلةَ التِى أتخلَّصُ بهَا منْكَ؟

- لاَ .. اخترهَا أنْتَ..

- تعرفُ أنِى غيرُ قادرٍ على أىِّ اختيَارٍ.. أنتَ تستَطِيعُ ذَلِك!

- اختارُ لكَ أنْ تعودَ إلى القمقمِ، خَيرٌ لك، ما دمْتَ لا تستطيعُ أنْ تمارسَ حريتَك!

- إذًا استأذِنُكَ يا سيِّدِى؟

- إلى أينَ؟!

- إلى مكانِى الأثيرِ الذى عشتُ فيه ثلاثةَ آلاف عامٍ!

- إنى آسف لك..

- لا تأسفُ كثيرًا، ربما عثُر علىّ إنسانٌ عاقِلٌ.

- أترانِى غيرَ عاقِلٍ؟

- أنا لا رأى لى ..

- إذنْ تستحقُّ هذَا المصيرَ!

ومضَى الجنى إلى القمقمِ، وَدَخَلَ فيهِ، بعدَ أنْ صغرَ حجْمُه، وتضاءل شأنُه، وقال لِى مودِّعًا:

- أرجُوكَ أنْ تحسِنَ وضْعَ السدادَةِ على القمقمِ..

ونفَّذْتُ له رغبتَه الأخيرَةَ.

مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ

(عرْقُوبٌ) هذَا، رَجُلٌ يضربُ به المثلُ فى إخلافِ المواعيدِ، وحكايتُه باسمَة ضاحكة تستحقُّ أنْ تُروَى، لنعرفَ كيفَ يمكنُ أنْ يكونَ الوَعْد مجرد حبرٍ على ورقٍ، والمعاهِدُ يمكنُ أنْ يتراجعَ عنهَا، والعقود الموثَّقة لا تساوِى شيئًا، عندَ هؤلاءِ، أحفادُ الذينَ وعدُوا نبيَّهُم أنْ يبقوا علىٍ إيمانِهِم، وما أنْ مضَى عنْهُم حتى عبدُوا عجْلا ذهبِيًّا.. بنُو إسْرائيل كلُّهُم عرقوب !

— ١ —

جاء أحدُهم إلى عرقُوبٍ، وقَالَ له ..

- لِى عندَكَ حاجَةٌ .

ردَّ عرقُوب: وأنا لِى عندَك حاجةٌ، قبلَها ..

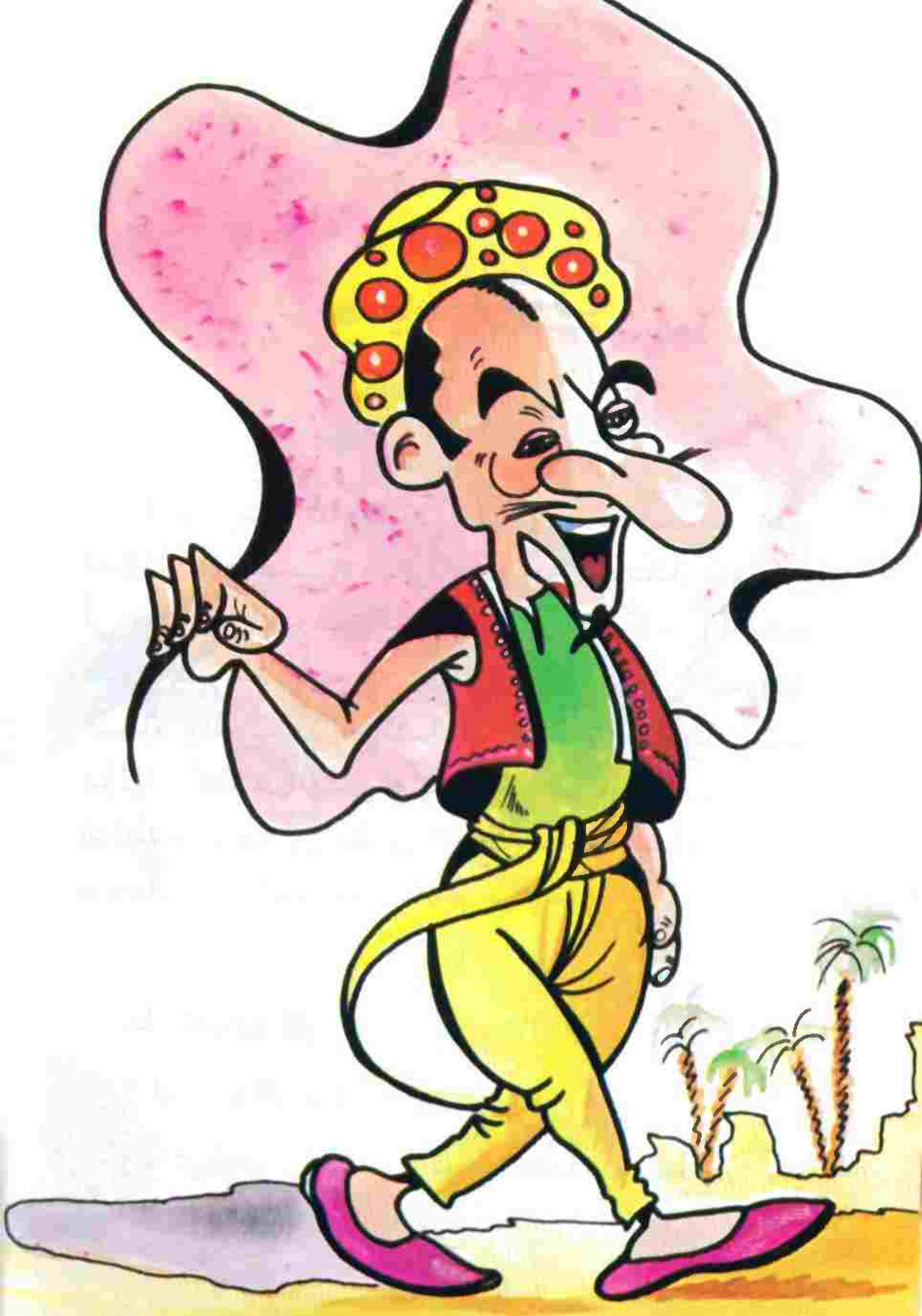

قال الرجلُ: ما هِيَ ؟

أجابَ عرقُوب: ألا تطلُبُ مِنِّيَ حاجَةً !

- ٢ -

ضحِك القادمُ، وهو ينظُر إلِي عرقُوب، وقدْ تذَاكى عليه، وحاولِ أنْ يحُول بينَهُ وبيْنَ أنْ يطلبَ منْه شيئًا، وقال له :

- يا عرقُوب، لستُ أسْألَكَ إحسْانًا، كلُّ ما أردتُّه أنْ تمنحَنِى عَملاً أتكسَّبُ منه..

قَالِ عرقُوب: إنْ كانِ الأمر كذَلِك، أهلاً بِكَ وسهْلا.. أترَى هذَا النخل الكثِيف؟

- نعَمْ أراهُ..

- هُوَ لِى.. وأسألكَ أنْ تقومَ عنِّى بمهمَّةِ نقِلِ الطلْعِ فِى النخْلِ من الذكُورِ إلى الإنَاثِ، لِكَىْ يُثْمِرَ..

- إنها مهمةٌ شاقةٌ، لكننى أقبلُهَا.. وكَمْ يكونُ لِى مقابلُ هذَا؟

- سأعطِيكَ أجرًا كَبِيرًا ترضِى بِه وتسعَد.

- إنهُ لصعْبٌ: اصْعَد فآتى بالطلْعِ، واهبطْ، ثم انسلَّقُ النخلةَ فأنزِل، وهكذا.. وأخشَى أنْ أسقط فتدق عُنُقِى

- هَذَا هوَ ما عنْدِى مِنْ عملٍ..

- قبلْتُه، والأمرُ لله.

- ٣ -

بدأ الرجلُ مهمتَه، وقدْ كانتْ صعْبة حقًّا، وعرضَ نفسَه للخطرِ، لكنه تقبلَهُ على أملٍ أنْ يحصُل على أجْرٍ عادلٍ من عرقوبٍ الذى كان يرقبُه، وهو يضحكُ فيما بينَهُ وبيْنَ نفسِهِ..

وما أنْ تمتِ المهمةُ بنجاحٍ حتَّى جاء الرجلُ إلى عرقوبٍ..

- قمت بما طلبتَ، وأرجُوكَ أنْ تدفعَ لِى أجْرِى..

ابتسمَ عرقُوب وقال:

- ليس بهذِهِ السرعَةِ..

- ومتَى أحصلُ عليه؟!

- لا تستعْجِل..

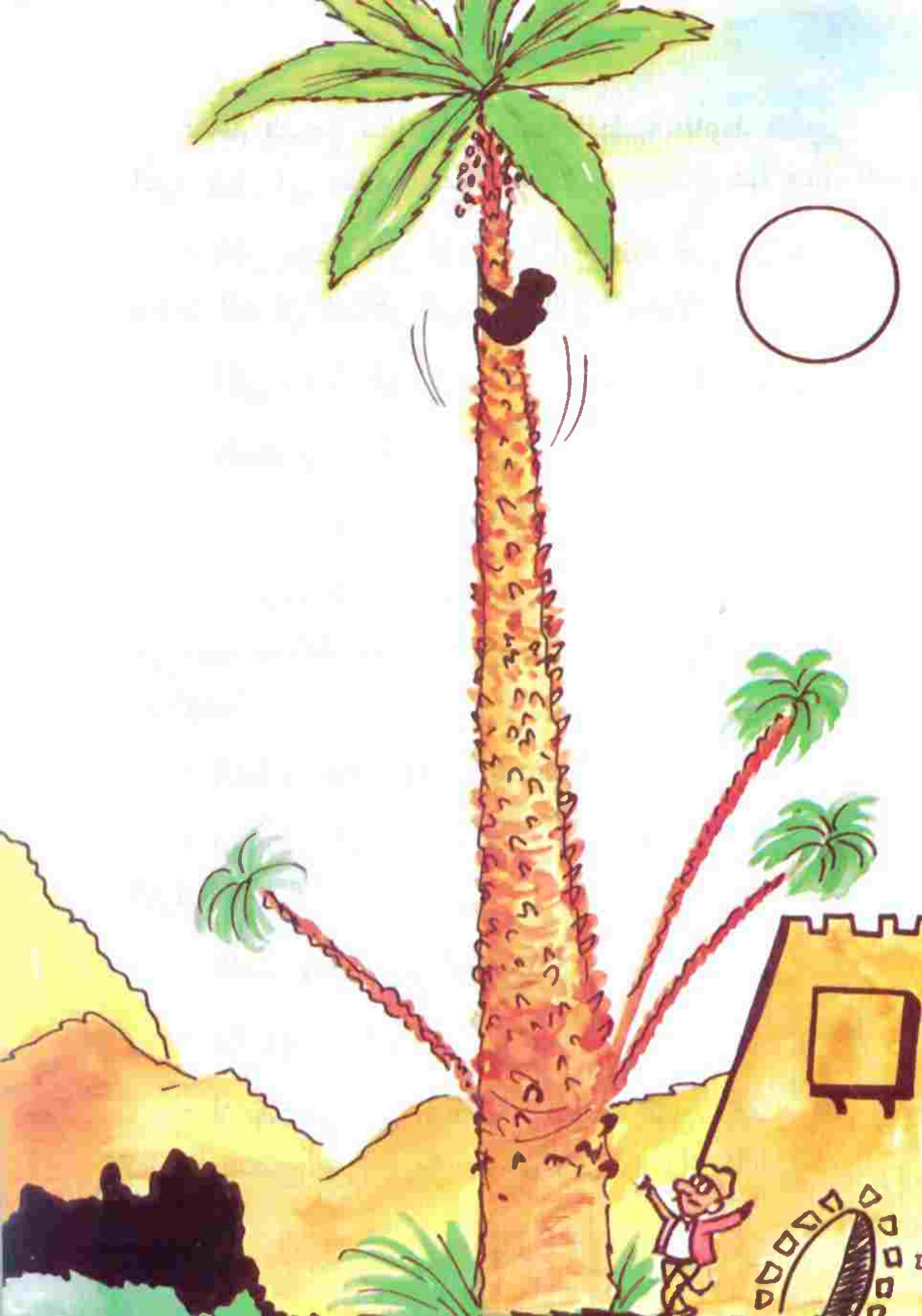

- ألمْ تسمعْ بتلكَ النصيحةِ الطيبةِ: أعطِ الأجيرَ أجْرَه قبْلَ أنْ يجفَّ عرقُه؟

- كان بودِّى أنْ أفعلَ، لكن ذلك غيرُ ميْسُورٍ، ولابدَّ لك أنْ تنتظرَ إلى أنْ تثمرَ النخلات بلحًا!

- لكنَّ وقتًا طويلاً سوفَ يمرُّ إلى ذلكَ الحِينِ؟

- فلْنصبرْ، معًا..

- ٤ -

وأثْمرتْ النخلاتُ بلحًا، وقدمَ الرجلُ إلى عرقُوبٍ يسأله أجْرَه، كما سبَقَ لهُ أنْ وعدَه، فقال عرقُوبٌ:

- أتطلبُ حقَّكَ والبلح أخضرَ؟

- ألمْ تقُلْ لِى عندمَا يثمرُ النخيلُ تحصلُ على أجْرِك؟

- قلتُ هذَا ، ولا أنكرُه..

- هَا هُو قدْ أثمرَ..

- لا يمكننِى أنْ أقطفَه وأبيعَه الآن.. عُدْ إلى عندمَا ينضجُ..

ويمضي الرجلُ ضيقَ الصدْرِ، وهو يقولُ لنفسهِ أنه لابدّ وأن يصبرَ، وأنْ ينتظرَ..

ومضَتْ شهُورٌ وبدأ البلحُ فوقَ النخيلِ ينضجُ، ويحمرُّ، ويصفرُّ، ويصبحُ شهياً للآكلينَ، فمضَى الرجُل إلى عرقوبٍ يسأله أنْ يفِيَ بوعْدِهِ.. قال عرقُوب:

- لماذا تتعجَّلُ الأمورَ يا رجلُ؟

- أتعجَّلُ؟!.. أبعْدَ كل هذَا انتظارٌ؟

- الصبرُ مفتَاحُ الفرجِ..

- قمتُ بعملِي على أكملِ وجْهٍ وطلبْتَ إلىّ أنْ أنتظرَ إلى أنْ يثمرَ النخيلُ، وها هُوَ قد أثمرَ.. قلتَ أنتظر حتى ينضجَ، وها هو قدْ نضجَ، هل تريدُ منى أنْ أنتظرَ أكثرَ مِنْ ذلك؟

- لكىْ تحصلَ علَى أجرٍ كبيرٍ، لابد وأنْ تنتظرَ إلى أن يصيرَ التمرُ رُطباً، وساعتها تحصُل على ثَمنٍ معقُولٍ، ويصبحُ أجرُك كبيرًا.. أليسَ مِنَ الحكمةِ أن تنتَظِرَ؟

- الأمر للهِ من قبلُ ومِنْ بعْدُ..

قالها الرجلُ وهو يتنهدُ آسِفاً وحزِيناً..

- ٥ -

عمدَ عرقُوب إلى النخيلِ، فجنَى كلَّ ثمرِه، وقطفَ جميعَ ما عليه مِنْ بلحٍ ناضجٍ، شَهِى، وجاءه الرجلُ يطلبُ الأجرَ..

- أجرْ؟! أىُّ أجرٍ؟

- ألمْ نقُلْ لِى انتظِره حتى يصيرَ التمرُ رُطَبًا؟

- رُطَبٌ؟! أىُّ رطبٍ؟!

وشخَصَ الرجلُ بعينيْه إلى السماءِ يشكُو إلى اللهِ ما فعلَه به عرقوب، الذى أصبحَ منذُ اليومِ نموذجًا لخلفِ الوعْدِ، وأكْلِ حقوقِ الناسِ بالباطلِ.. والناسُ يسخَطُونَ عليه منذُ ذلك الحينِ!

بيت صغير تربّى في الحياة

هذه قصةٌ، لا نظنُكم التقيتُمْ بمثلها مِنْ قبلُ.. هِيَ عملٌ مِنْ تأليف «هيربى برينان». تبدأ بشكلٍ عادى، وفجأةً تنعطفُ بنا هنا وهناك، وتأخذُنا إلى أماكنَ لم نرها مِنْ قبلُ، وتُدخلنا فى متاهاتٍ لم نشهدْها.. ولسنا نريدُ أنْ نفسدَها عليكم بالحديثِ عنها إذْ هِيَ ستقولُ لكمْ كلَّ شىءٍ، فى مغامرةٍ مثيرةٍ يصبحُ فيها الرسمُ حياةً، وتتحوَّلُ الحياةُ إلى رسمٍ.. ومِنَ الأفضلِ أنْ ندعها لكم، وأنْ ندعكم لها.

— ١ —

كانَ الأستاذُ «شاكرُ» يوزعَ أوراقاً وأقلاماً على الأطفالِ وهُوَ يقول مؤنباً:

- رسْم! لو كانَ الأمرُ بيدِى لأعْطيْتُكُم مسائلَ فِى الحسابِ طِوال اليومِ.. رسْم! هاهَا!! مَا فائدتُهُ؟ مَا قيمتُهُ؟ مَا الذى فعلَهُ أو أعطاه لأىِّ إنْسَانٍ؟

نيللِى لمْ تكُنْ تعرِفُ الجوابَ، لكنهَا كانتْ تعلَمُ عنْ يقينٍ أنهَا تحبُّ الرسمَ، فهوَ يساعدُهَا على أنْ تنْسَى كيفَ هِىَ متعبة ومرعِبة هَذه المدرسَة منذُ انتقل إليهَا الأستاذُ «شاكرُ» الذِى أضافَ..

- إنَّ لكُم سَاعَةً لتقومُوا برسُومِكُمْ السخِيفَة، ارسِمُوا ما تشاءُونَ، فالأمرُ ليسَ مُهِمًّا، وبِلا جدْوَى.. بعدهَا سوفَ أعطِيكُم مسائِلَ الحِسَابِ.

وعَادت إلى ما وراءَ مكتبِهِ وهو يضيفُ..

- احذرُوا أنْ تمسحُوا الرسمَ بأصابِعِكُم، هَذَا خطأٌ فظِيعٌ..

قال له «رضا نور الدين» الذِى كانَ يتسمُ بالشجَاعة، محتجًّا:

ليسَ لدينَا ممحَاةٌ جيدةٌ!

قالَ المعلِمُ:

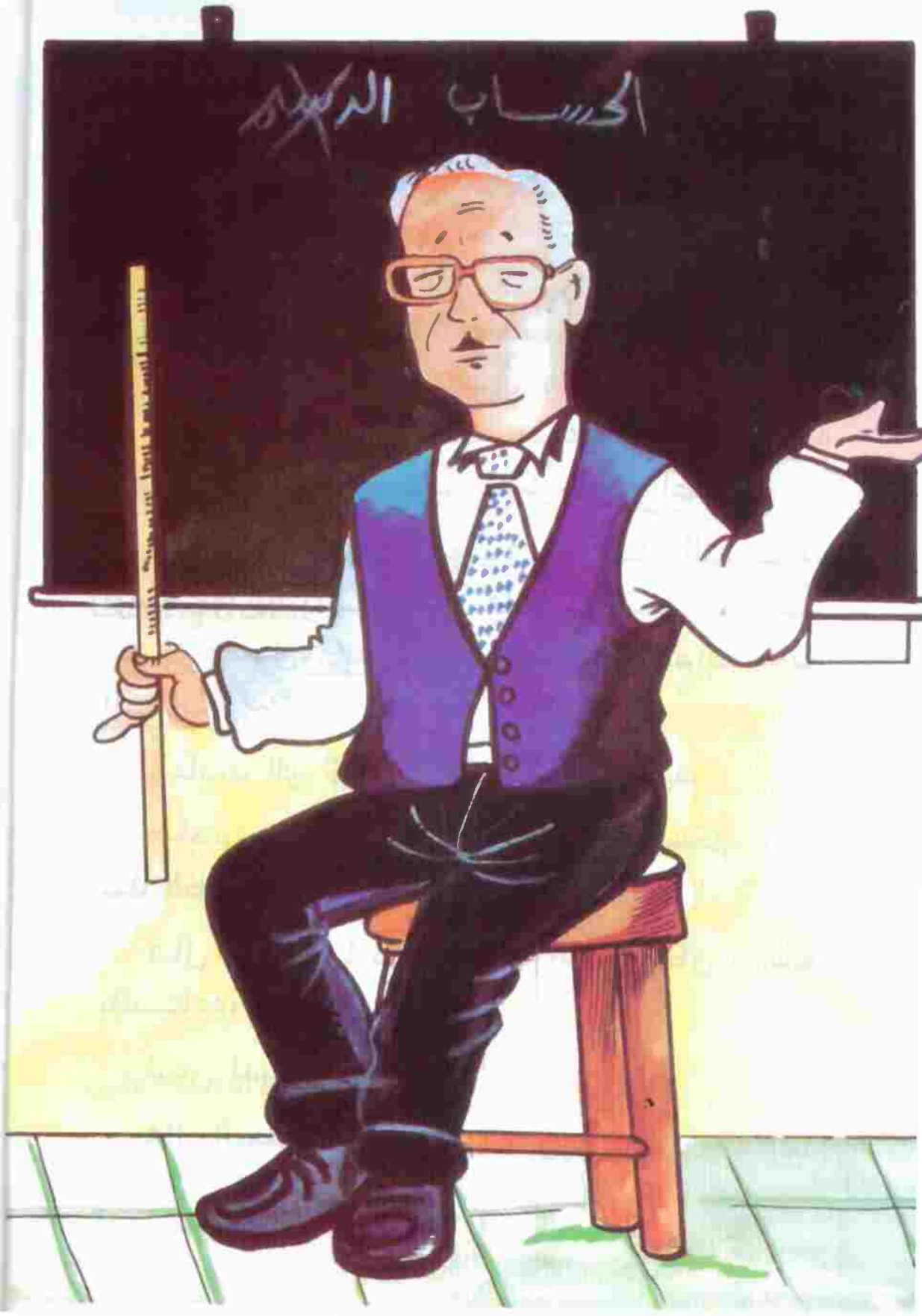
الحساب الدهلاه

- أىٌّ منكُمْ يُريدُ ممْحاةً، يستطيعُ أنْ يستعيرَ هذه التى علَى مكتبى.. إذَا جرؤَ على ذَلك!!

تطلعَت «نيللى» إلى صفحَة الورقة البيضَاء وقدْ شعُرت بالكثيرِ منَ الضيقِ تجاهَ أستاذِ «شاكرِ»، فقدْ كانتْ سعِيدةً فى مدرستِهَا قبل وصُوله، عندمَا كانَ معُلمهَا هو الأستاذُ «صبرِى»، وكانتْ أكثرَ سعَادَة مَعَ الأستاذ «رمضانَ» عندمَا انتقلت إلى فصلِه.. أما الأسْتاذُ «شاكرُ» فهوَ سريعُ الغضَبِ، طُول الوقت، حادُّ اللسانِ، وقدْ جعَل حياةَ طلابِ المدرسَة مؤسفة مؤلمة حزِينَة.. وكانَ كل منْ فِى الفصْلِ لديْهِ هذَا الاحساس!

بعدَ قليلٍ أمسكَ «تامرٌ» بقلمِه وبدَأ يرسُم..

- ٢ -

رسمَت «نيلْلى» بيتًا جميلاً حبيباً عزِيزًا عليهَا، لهُ سقفٌ وشرفاتٌ، وأدَارت قلمَهَا حول واحدةٍ منهمَا لترسم الدخَّانَ المتصاعدَ.. ثم رسمَت نافذتيْنِ، كأنهمَا عينانِ، فى واجهَةِ البيتِ، وأضافتْ بابًا كأنَّه أنفٌ فيمَا بينهمَا.. ونطلعَتْ إلى الرسْمِ، كعادتهَا حِينمَا تبدأ، ذلك لأنهَا تريدُ أنْ ترى إذَا ما كانَ هوَ الذِى فِى رَأسِهَا.. ثُمَّ تخيلتْ حديقة

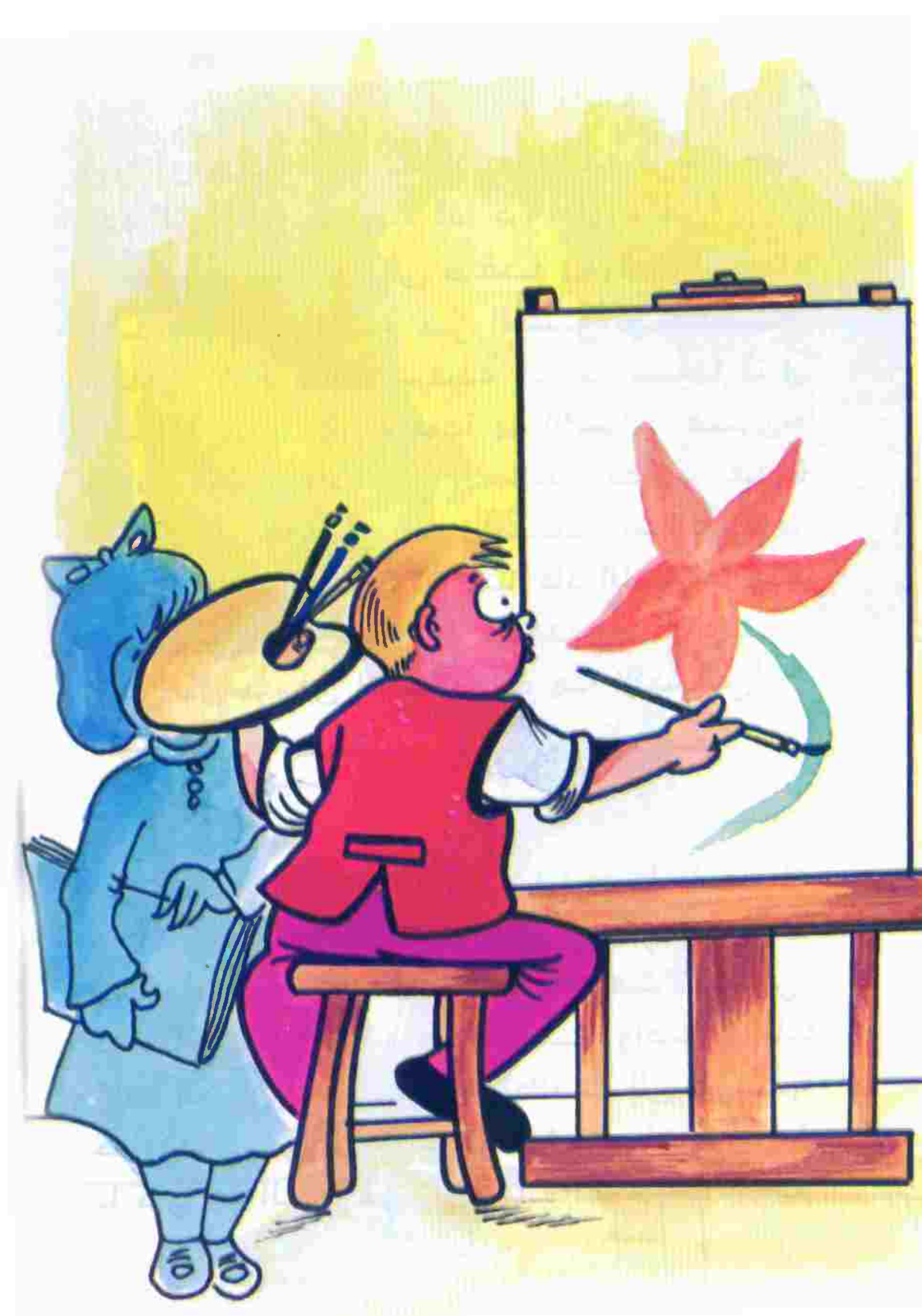

مِنْ حولِه، وطريقًا متعرجًا يصلُ إلى البابِ الأمامى، وأيضا تصوَّرتْ أشجارًا، وفناءً خلفيًّا للبيت، به كوخٌ صغيرٌ فى جانبٍ منه.. ورغبتْ فى أنْ ترسمَ مقبضا للبابِ على هيئةِ رأسِ أسد، ولم يطاوعها قلمُها، فرسمتْ شيئًا عاديًّا، وأضافتْ بعض الحشائش للحديقة.. وزادتْ على ذلك حديدةً لإغلاقِ الكوخِ منَ الخارجِ، وسريرًا معلقا بينَ شجرتينِ.. ورسمتْ منْ فوقِ البيتِ شمسًا ساطعةً، تخرجُ عنها خيوط ضياء.. ثم رسمتْ قطا ضخماً فى الحديقةِ، تبدُو عليه علاماتُ الشراسةِ والعنفِ، وكانَ أكبرَ منْ أنْ يكونَ قطا، لكنها خافتْ منْ أنْ تذهبَ إلى مكتبِ الأستاذ «شاكر» لتستعيرَ الممحاةَ لذلك تركته على ما هوَ عليه، ورأتْ أنَّ رسمها بذلك قد اكتمل ولما كانَ متبقيًا الكثير من الوقت أسندتْ رأسها إلى كفها ونظرتْ إلى الرسمِ، وبدأت تتنفسُ.

فتحتِ «نيللى» عينيْها، فزعة، وأدركتْ فجأةً أنَّ هناك خطأ ما.. إنها لم تعدْ فى حجرة الدراسةِ، لكنها فى غرفة خالية، وهناك أخشابٌ تحترقُ فى المدفأة.. ولمْ يكنْ هناك أثاثٌ على الإطلاقِ، ولا صورٌ معلقة على الجدرانِ، وما منْ

سجاد على الأرض، ولا (موكيت).. وكانت وحيدةً تمامًا.. وتلفتتْ حولها فى خوف، كانت الجدْرانُ بيضاء، وكذلك الأرضُ، والسقفُ، وكانَ أكثر مَا أفزعها أنَّ هناك شيئًا مَا ليسَ موجودًا.. نعم، كل شىءٍ لم يكنْ هناك، وهى لم تكنْ فى غرفة مثْل هذه من قبل ولا تعرفُ بالضبط: لماذا؟ ومرةً أخرى راحتْ تتلفتُ حولها، لكنها لم تستطعْ أنْ تدرك شيئًا.. ونظرتْ إلى النافذة، كانتْ هناك أشجارُ الحديقة بالخارج، وأيضًا الطريقُ المتعرِج، وبعض الأعشاب الخضراء الجميلة كما لمحت السريرَ المعلقَ بين شجرتيْن، وتساءلتْ: أينَ هى؟.. وللمرة الثالثة ألقتْ بنظرها هنا وهناك، وما منْ شىءٍ يفسر لها كيفَ وصلتْ إلى هنا، وكيفَ دخلتْ، ونظرتْ للنافذة، وفكرتْ فى أنها لو خرجتْ إلى الحديقة فقدْ تجدُ منْ يساعدُها، وأرادتْ أنْ تغادرَ الغرفة وتنبَّهتْ إلى الشىءِ المفقودِ: ما منْ بابٍ للغرفة على الإطلاقِ، إنها فى مصيْدة

- ٤ -

دَقَّ قلبُ «نيللى».. وبدأتْ تطوفُ بالجدْران، وتتحسسها بحثًا عنْ بابٍ، وتحملقُ فى سطحها

الأبيضَ الأملسَ الميتَ.. كانت الجدرانُ الأربعةُ ناعمة، بلا أية علامات لباب هنا أوْ هناك، لكنْ أترى منْ ذا الذى يبْنِى غرفة بلا بابٍ؟

وكيفَ استطاعَت هِىَ أنْ تدخل إليها ما دامَ ليسَ لها بابٌ؟.. هَل دخلتهَا من النافذَة؟.. ما منْ سَبيلٍ آخرَ..

جرتْ نيللى» ناحيةَ النافذة.. إنهَا مُغْلَقةٌ تماماً.. حاولتْ أن تدفعهَا، لكنهَا لم تتحرَّك، حاولتْ أنْ تفتحَهَا بكل وسيلةٍ ولم تنجحْ.. وراحتْ فى يأسٍ تدقُّ عليهَا بقبضتهَا غيرَ أنها لم تنكسرْ.. فتراجعَت عنهَا فى رعْبٍ.. إنهَا لا تعرفُ أينَ هِىَ؟!، ولا كيفَ دخلتْ هنَا؟!، ولا تعلمُ كيفَ تخرجُ؟!..

فكرتْ فى المدخنة. فقدْ تستطيعُ أن تتسلقهَا منَ الداخلِ.. هِىَ لم تفعَل ذلك أبداً منْ قبل، لكنهَا لم تكنْ فى غرفةٍ بلا بابٍ، ولها نافذةٌ لا تنفتحُ على الإطلاقِ.. جرتْ إلى المِدْفأة لكنَّ قطعَ الخشبِ كانتْ مَا زالتْ مشتعلة، وما منْ سَبيلٍ لتسلقِ المدْخنةِ دونَ أن تجدَ نفسهَا وسط النارِ، فما كان منهَا إلا أن بكتْ وهى تقول:

- النجدَةَ!

وفجأةً سمعَتْ صوتَ انفجارِ مُدَوٍّ عندَ النافذَة، ولمحتْ وحشاً يحطمُ الزجاجَ ويقتحمُ الغرفة..

- ٥ -

دَارتْ «نيللى» حَوْلَ نفسِهَا.. كان ذلك الوحْشُ أشبهُ بالقط، لكنه قط لم ترَ له مثيلا من قبل، فقدْ كانَ أضخمَ منَ الفهْدِ.. ومنَ الأسَدِ، وتطل من عينيْهِ نظراتٌ شريرةٌ، وشَرارَاتٌ محرِقة..

- نيو .. نيو

جَرَتْ «نيللى» حول الغرفة الخالية، فما كانَ هناك مكانٌ آخرُ تجرِى إليْهِ، والقط الشرِس يطاردُهَا وكأنهَا فأرٌ صغيرٌ.. صرخَتْ فيه:

- دعْنِى .. اتركنِى..

كشرَ القط الضخمُ عنْ أنيابِه، وشرعَ مخالبَه، وانطلقَ منْ ورائِهَا وهى تجرى وتلهثُ، ويكادُ فحيحُ صوْتِه يخترقُ أذنيهَا، وتحسُّ بأنفاسِه قربَ عنقِهَا، فأسرعتْ بالجرى ودارتْ حول الغرفة دورتيْنِ وهوَ يقتربُ منهَا أكثرَ فأكثرَ، إنه على بعْدِ بوصةٍ، نصفِ البوصَةِ، ربعِ البوصَةِ، ثمنِ البوصَةِ، و..

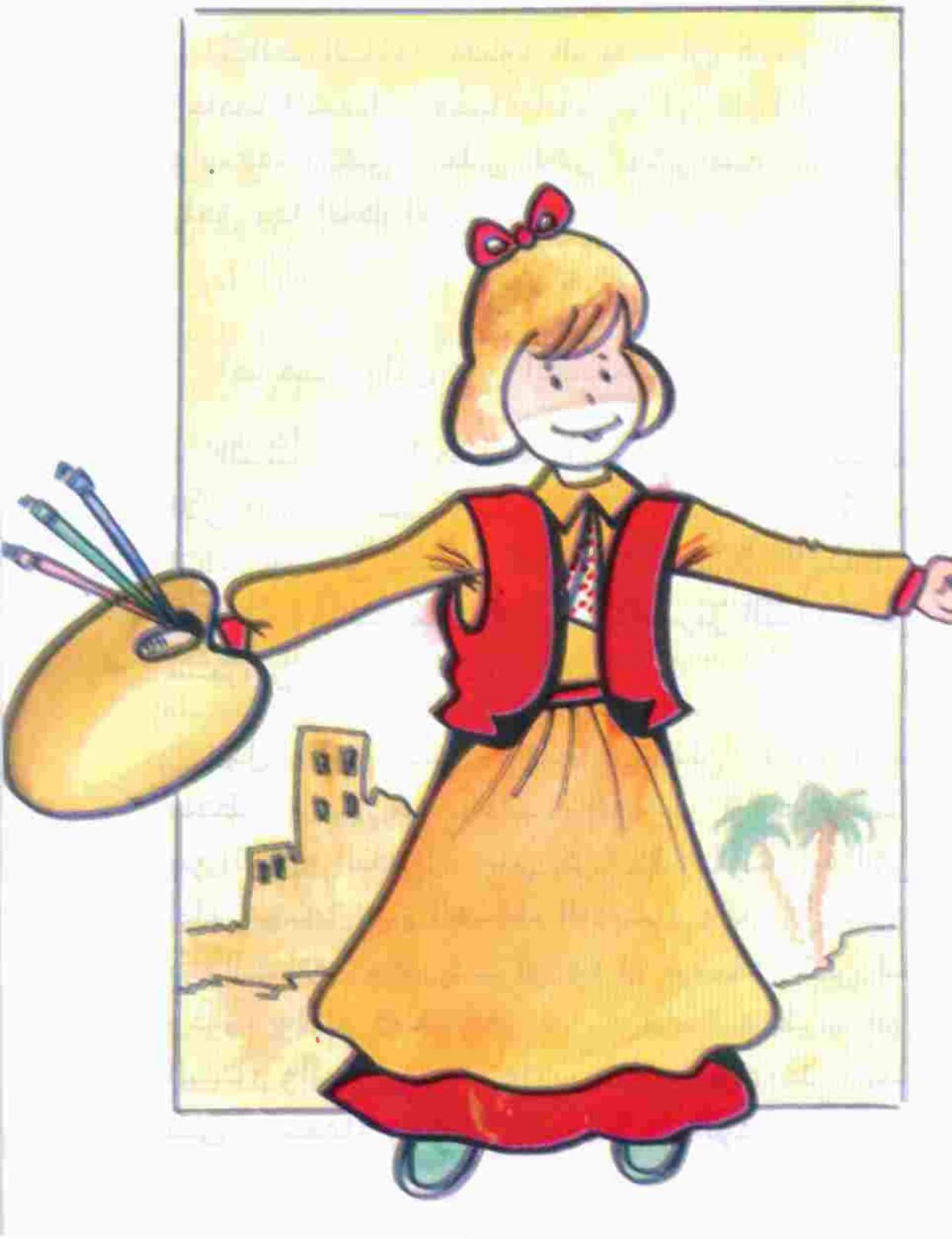

كانت النافذةُ مفتوحةً، بعْدَ أنْ كسرَ القطُّ زجاجهَا السميك، وفجأةً انفتحَت فى الحائط ثغرةٌ واسعةٌ، تكفى «نيللى» لكى تقفزَ منهَا قبْل أنْ يلحقَ بهَا القط الرهيبُ..

— ٦ —

أصبحَت «نيللى» فى الحديقةِ..

البيتُ منْ ورائهَا له نافذتَانِ: (واحدةٌ منهمَا الآنَ أصبحَت ثغْرة فى الجدرَانِ) والبابُ كأنه أنفٌ، وطريقٌ متعرجٌ نحوَ البابِ، تملأ الأعشَابُ جانبيْهِ، وحانَتْ منهَا التفاتةٌ للسرير المعلقِ بيْنَ شجرتيْنِ ولمحت الكوخ مائلا، و.. .

هلْ كانتْ تحلم؟.. إنهَا لا تظنُّ ذلك، لقد سقطت داخل رسمهَا للبيتِ الصغيرِ الجميلِ، هَذَا هُوَ الشىءُ المعقولُ.. إنَّ كل ما رسمتْه هو الآنَ أمامَ عينيْهَا فى السقف المدببِ، والدخَان يخرجُ منْ المدخنةِ، وأدركت أنَّ ما لم ترسُمْهُ ليس له وجُودٌ، ولهذا كانت الغرفة بلا بَابٍ، ونظرَت إلى البيْتِ، وإلى الحديقةِ، وأحستْ أنَّ الحياةَ قدْ دبَّتْ فى رسمهَا، وفجأةً قفزَ القط الوحْشىُّ منَ

النافذَة، وأصدرَ مُواءَهُ المفزعَ، وتمنَّتْ «نيللى» لوْ أنهَا لمْ ترْسمْه.

جرت «نيللى» بينَ الشجيرَات والقطُ منْ ورائِهَا، يطاردُهَا.. ولفت حول الأشجَارِ، ودَارت إلى خلفِ البيت، ثم عَادَت إلى بَابِه الأمَامِىِّ.. وهى تعتقدُ أنَّ القط لابدَّ وأنْ يشعرَ بالتعَبِ والإرهَاقِ مِنْ مطاردَتِه إياهَا، وأنهُ لابدٍ وأنْ يتوقفَ قليلا عنِ السعْىِ مِنْ وَرَائِهَا.. خاصة وأنَّ هناك دجاجَاتٍ يعقنَ طريقه، واستندَتْ إلى جدَارِ البيت تلتقط أنفاسَهَا، وتذكرَتْ أنهَا لم ترسْم مفتاحًا للبَابِ، ولذلك هِىَ غيرُ قادرةٍ على أنْ تفتحَه وتدخُل فيه، وفكرت أنْ تعودَ للغرفةِ الخاليةِ من خلالِ النافذَةِ وخطرَ لها أنْ تتسلقَ شجرةً، لكنهَا تعلمُ أنَّ القطط ماهرةٌ فى ذلك، وسوفَ يتعقبهَا إلى فوْق، ولنْ تَجدَ منه مهرباً.. ووقعَ بصرُهَا على الكوخ.. كانَ مائلا، لكنه قوىٌ، متينٌ فيمَا نَرى، وله نافذةٌ واحدَةٌ غيرَ أنهَا صغيرةٌ لا يمكنُ أنْ ينْفُذَ منْهَا القط.. كما أنَّ للبابِ حديدةً يمكن استخدامُهَا فى إغلاقِه منَ الخارجِ، وسكتَ صوتُ الدجَاجِ وسكنَ، مما يدُل على أنَّ القِط لم يستطعْ أنْ يمسِك بِهِ كلُه، وأنَّهُ

أى القط - قد بدأ يتعبُ، ويرهقُ.. ووسط هذا الهدوءَ المريبَ كانَ يتلصصُ حول البيتِ يتشممهَا ويبحثُ عنهَا، فما كانَ منهَا إلا أنْ جرتْ نحوَ الكوخِ، بسرعةٍ ولهفةٍ، واختفتْ تمامًا عنِ أنظار القط المتوحِّش.

- ٨ -

كانَ القطُّ يفتِّشُ عنهَا هنَا وهنَاك.. قفزَ عندَ النافذَةِ، ونظرَ إلى داخلِ الغرفة الخاليَة المغلقة، لم يَجِد البنتَ الصغيرةَ.. وتطلعَ إلى الداخلِ منَ النافذَةِ الأخْرَى فقدْ تكونُ قدْ دخلت البيتَ بطريقةٍ مَا، فلمْ يلمح البنتَ الصغيرةَ بالداخلِ.. وطاف بالحديقةِ، وشجيراتِهَا وأشجارِهَا، وبالممرِّ المؤدِّى إلى البيتِ، ولم يجد البنتَ الصغيرةَ.. ولم يجدْهَا أيضًا فى ذَلك السريرِ المعلق بيْنَ الشجرتيْنِ بل رفعَ عينيْه إلى ما فوقَ فروعِ الأشجَارِ، ولم تكُنْ هناك.. والتفتَ إلى الكوخِ حيثُ كانَ شريطُ شعرِ البنتِ الصغيرةِ قدْ علقَ بالبابِ.. فاندفعَ نحوه، وضربَه برأسِه بكل قوةٍ وعنْفٍ، ليفتحَهُ، ويقتحمَه مُطلقا صيْحَةَ انتصَارٍ.. وجاءت هى مِنْ خلفِ الكوخ لتغْلقَ البابَ عليْه، وتدفعَ بالحديدَةِ لمكانِهَا، لتسدَّ عليْه كل سبيلٍ

للخرُوجِ.. وصارَ يموءُ بصوتٍ عَالٍ، ويعمَلُ مخالبَه فى جوانبِ الكوخِ دُونَ جَدْوى.

- ٩ -

كَانَتْ «نِيللى» تفكرُ بعمْقٍ فِى طريقَةِ تعودُ بهَا إلى حُجْرةِ الدراسةِ، وجلسَتْ فِى الشمْسِ الدافئةِ تبحثُ عنْ وسيلةٍ لذلك، والقط يعْوِى بداخلِ الكوخِ، وتذكرتْ ما رسمَتْهُ، لكنهَا لم تكنْ تعرفُ كيفَ وصلَتْ إلى هذَا المكانِ، وتنبهَتْ إلى أنهَا أسندَتْ رأسَهَا إلى يدِهَا، آه.. لقد نعسَت.. نامتِ. هذَا هوَ الذِى أتى بهَا إلى هُنَا، إذْ غادرتْ عالمِ حجرةِ الدراسَةِ إلى عالمِ رسمِهَا المسطحِ، إنهَا مُتأكدة مِنْ أنَّ هذَا هُوَ الذِى حدثَ.. وخطرتْ لها فكرةٌ.. نظرتْ إلى ذلك السريرِ المعلقِ بيْنَ شجرتيْنِ، هى لم تكنْ ترغبُ فى أنْ تصل إليْه حيثُ هو عَالٍ، لكنهَا اتجهَتْ نحوَه عبرَ طريقٍ الحديقةِ المتعرِّج، وبذلك ابتعدَ عنهَا صوتُ القط رويداً رويداً.. إلى أنْ وصلَت إلى آخر هذَا الطريق.. وكانت الأمورُ كلُّهَا كما تخيلتهَا وتصورتْهَا وتوقعتْهَا.. لقد انتهَى بِهَا الممرُّ إلى لوحَةٍ كبيرةٍ لحجرَةِ الدراسَةِ، بمقاعِدِهَا، وسبُّوراتِهَا،

بلْ وإلى فناءِ المدرسةِ عبرَ النافذَة، وكانتْ هناكَ رسومٌ للأطفالِ جميعًا، ومنْ وراء المكتبِ كانَ هناكَ رسمٌ للأستاذ «شاكر» تبدُو فيهِ صورتهُ قبيحَةً.

ابتسمتْ «نيللى».. إنها عندما نامَت فى البدايةِ تحوَّل رسمُها إلى حقيقةٍ واقعَةٍ وصارَ العالم الحقيقىُّ الواقعىُّ إلى مجرَّدِ رسْمٍ.. وهىَ إذَا ما نَامتْ مرةً أخْرَى سوفَ يعودُ كل شىْءٍ إلى أصلِه.. الرسمُ يرجعِ رسمًا، والحياةُ تصبحُ حياةً!.. غيرَ أنهَا قبْلَ أنْ تنامَ مرةً أخْرى، كانَ هناك شىءٍ لابدَّ لها وأنْ تفعلَه.. لقدْ مدَّتْ إصبعَهَا إلى الرسْمِ الواقعِى، ومحتْ بمهارةٍ تامَّةٍ صُورةَ الأستاذ «شاكر»..

وعادَت مرةَ أخْرى إلى الممرِّ المتعرِّجِ، وصعِدَتْ إلى حيثُ السرير المعلق بيْنَ الشجرتَيْنِ، ورقدَت فيه.. وعلى الرغمِ منْ صوْتِ القط المتعالى، إلا أنهَا سقطتَ على الفوْر فى نوْمٍ عَميقٍ.. عَميقٍ.. عَميقٍ.

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٠١٨٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6847-X

٧/٢٠٠٥/٤٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مكتبتى

تضم باقة متنوعة من القصص الخيالية المشوقة والهادفة لتوصل المبادئ والقيم فى نفوس الصغار ؛ كى يشبوا مواطنين أصحاء . وقد كتبت القصص بلغة سهلة . وأسلوب واضح يحقق المطلوب بين الكاتب والقارئ . ويغرس فى قلبه عشق القراءة والمكتبة .

صدر منها :

١ النملة تنال الجائزة
٢ الأرانب الثلاثة
٣ رحلات وليد وقلمه العجيب
٤ الأسد فرس والفيل نص
٥ البحث عن القمر
٦ الفرانشة رفرف
٧ رسالة من كوكب الأقزام
٨ أنت كم تساوى ؟
٩ المباراة المثيرة
١٠ الغراب التائه
١١ عيون الدنيا
١٢ هجرة عروس البحر
١٣ الخطوة الأولى
١٤ جدى يفتح صندوقه
١٥ سجين الكوخ
١٦ المقعد المتحرك
١٧ متى تغضب يا نيل ؟!
١٨ الغزالة ريم
١٩ الضفدع روغ
٢٠ مغامرات الكلب هوهو
٢١ السمكة سيرا
٢٢ الملك لك
٢٣ العصا غلبت المدفع
٢٤ رحلة الخلود
٢٥ حكايات الجد عمران
٢٦ فارس بمائة فارس
٢٧ الحصان صديقى
٢٨ شبيك لبيك
٢٩ كوكب الأرض السجين
٣٠ وفى يده حجر
٣١ حكاية رجل عظيم
٣٢ الجزء والكل يصنعان الحياة
٣٣ سيناء تغنى
٣٤ شجرة تنمو فى قارب
٣٥ لا تلقنى فى النهر
٣٦ سارق الأيام
٣٧ شعاع من نور
٣٨ النجم الهارب إلى السماء
٣٩ أحلام خضراء
٤٠ من وحى الأنبياء
٤١ صندوق نعمة ربنا
٤٢ أنت ومالك لأبيك
٤٣ بريق الذهب
٤٤ حكاية طارق وعلاء
٤٥ لسانك يا عصفور
٤٦ كذب المنجمون
٤٧ أحسن شىء أنى حرة
٤٨ نبع الحنان
٤٩ شمس البهلوان
٥٠ الحمار مطربا
٥١ رجل السيرك
٥٢ البداية مع قطعة شيكولاتة
٥٣ ياسمين والقمر
٥٤ النيل يهجر مجراه
٥٥ التلميذ الطيب والأشرار الثلاثة
٥٦ غناء فى القصر المهجور
٥٧ شجار الأشجار
٥٨ شارع السعادة
٥٩ مدينة الفجر

٢٢٥٢٣٢/٠١

دار المعارف